من تراب الطريق (٤٤١)

هل أنصفنا الناس (*) في حياتهم؟!

تكرر أكثر من مرة ، فى الآونة الأخيرة ، زخم من التقدير والإشادة والتكريم ، لأكثر من راحل تجاهله الناس فى حياته ، بل تجاهله أصحاب التقدير والإشادة ، وتستطيع أن تأخذ الكاتب الصحفى الأستاذ محمود عوض مثالًا لهذه الملحوظة التى لفتت مع غيرها انتباهى .

الأستاذ محمود عوض كان ملء السمع والبصر لسنوات قريبة ، ولم يكن من ظهورات الصحافة أو الكتابة ، بل شهدت مقالاته وتحقيقاته الصحفية وكتبه وعبرت عن موهبة حاضرة ، وأستاذية لافتة أعطته مساحة كبيرة لدى القراء والمتلقين عنه بعامة ، وكان لازم ذلك أن تُفْسَح له مساحة أوسع فى المواقع الصحفية الكبرى ، ولكنه لأسباب غير معروفة حُجب عن المواقع الجدير بتبوئها ، وحُجب أيضًا أو كاد ـ عن الكتابة سيما فى الصحف القومية ، ويبدو أن الغيرة المهنية حالت بدورها دون إفساح المكانة والمساحة المكافئة لموهبته وقدراته ـ بل دون إعطائه أى مساحة على الإطلاق ، ولم يظهر إلا مؤخرًا ـ وعلى استحياء ـ فى بعض الصحف المستقلة ، ثم فجأة ، رحل الأستاذ محمود عوض عن دنيانا وحيدًا فى مسكنه ، ولم تُكتشف وفاته إلاّ بعد أيام ، وفجأة انهمرت الكتابات فى كل موضع ، تشيد بالراحل العظيم ، وتضفى عليه من الأوصاف والصفات ما لو سمع معشاره فى حياته لمات هانئًا سعيدًا قرير العين!!

(*) المال ٣/ ٥/ ٢٠١٠ .

ظنى أن معظم هذه الكتابات إقرارٌ بالذنب والتقصير فى حق الراحل الذى لا يختلف أحد حول تميزه وموهبته وقدراته ، لم يكن الراحل مجهولًا حتى لا تتذكره الأقلام إلاّ فجأة بعد رحيله عـن الدنيا ، فذات هذه الأقلام ، ومنها أصحاب مواقع مؤثرة ، تعرف له قدره الذى ظل مطويًا لا يظهر ولا يُبْدى ولا يُنصف إلى أن مات! فلماذا لا ننصف الناس أحياءً ، ولماذا دائمًا لا يأتى إنصاف الناس إلاّ بعد موتهم ؟! حالة الأستاذ محمود عوض ليست هى المرة الأولى ، ولن تكون الأخيرة ـ لانفجار الرثاء وانهمار ذكر محاسن وأفضال وآثار ومآثر الميت ؟! وهو ما حدث أيضا بعد وفاة الأستاذ الجليل الدكتور فؤاد زكريا الذى كابد العزلة فى سنواته الأخيرة التى غلبه فيها جحود ونسيان الناس أكثر ممـا غلبه السن والمرض !! لماذا دائمًا يأتى الإحساس بالواجب متأخرًا عن موعده حين لم يعد بوسع المزجى إليه الإطراء والثناء أن يتلقاه أو يسمعه؟!

ترى كم شخص يحس الآن ـ فى هذه اللحظة ـ بجحود أو نسيان الناس له ؟! ما هو إحساس الوالدين حينما لا يتلقيان من الأبناء إلا الجحود أو إلقاء الفتات المادى أو المعنوى لهما من وقت لآخر أو فى المناسبات ؟! ما هى مشاعرهما وقدر ما يعانيانه من التعاسة حين يهملهما أولادهما ولا يعطونهما إلاّ ظهورهما ؟! ما هى مشاعر المعلم الذى ينكره تلاميذه ؟! ما هو إحساس الطبيب الذى بذل وداوى حين يجحده مريضه ؟! أو المحامى الذى أعطى من فكره وعلمه ما أقال به مظلومًا من ظالميه أو جبر عثرته ، فلا يلاقى إلاّ الجحود والإنكار؟! لازلت أذكر أسى أستاذى الجليل محمد عبد الله محمد ، من مسلك طبيب كاتب ترافع عنه سبعة أيام كاملة ، شهدت فيها محكمة جنوب

القاهرة مرافعة رائعة أقالت المتهم الكاتب الطبيب من تهمة الكفر والإلحاد ، فلما صادف محاميه هذا الرائع ، على متن رحلة إحدى الطائرات ، تجاهله كأنه لا يعرفه ! ذكر لىّ الأستاذ محمد عبد الله محمد هذه الواقعة بعد حصولها بسنوات لم تنجح فى إزالة ما يشعر به من مرارة ، يومها واسيته بأن حال الطبيب الكاتب المذكور شبيهة بالمريض النفسى الذى ينكر - باللاوعى - طبيبه الذى عالجه لأنه يذكره بحالته المرضية التى كانت ويريد أن يهرب من ذكراها .. من العجيب اللافت أن الطبيب الكاتب عاد بعد سنوات طويلة ، فى برنامج تليفزيونى بُث بعد رحيل الأستاذ محمد عبد الله محمد ، ليذكر للمتلقين عبقريته واقتداره ومآثره عليه حين أنقذه دفاعه المتميز الرائع من تهمة الإلحاد على هامش كتابه الذى كان قد أصدره وهو فى أول الطريق ! كان محمد عبد الله محمد قد مات وفارق الدنيا حين تذكره الكاتب الطبيب وأثنى عليه ، بعد أن كان قد أنكره فى حياته!

لماذا تتعدد فى الحكم والأمثال أوابد مثل : «إن أنت أكرمت الكريم ملكته ، وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا» !! ومثل : «علمته الرمى فلما اشتد ساعده رمانى» !! ترى كم من الأقلام التى تذكرت فجأة مآثر وموهبة الأستاذ محمود عوض ، أعطته ظهرها وأنكرته فى حياته ، وكم من أصحاب هذه الأقلام حجبوا عنه المواقع التى يستحقها ، وحجبوا كتاباته عن القراء .. عمدًا مع سبق الإصرار ؟! ما الذى جعل عبقرية مثل الدكتور جمال حمدان تنطوى منغلقة على نفسها ، وتخاصم الدنيا حتى لاقت حتفها وحيدة بالسكن الذى تحول إلى سجن انفرادى اختيارى .. فى حريق مأساوى عبثى ، ولكنه يستحضر ما درجنا عليه من جحود وإنكار الأحياء ، لا نذكرهم إلاّ بعد وفاتهم من باب إبراء الذمة وإراحة الضمير المتعب من الإحساس بالذنب والتقصير ؟!

الغريب اللافت ، أن المعطائين هم أكثر الناس معاناة من جحود وإنكار وقلة إخلاص وربما خيانات الناس ! هل ذلك لأن حجم وتواصل عطائهم يزيد ـ بالمقابلة ! إحساسهم بهذا الجحود ؟! لا مراء فى أن المقابلة تزيد الإحساس بالمرارة ! ولكن المؤكد بغض النظر عن قدر هذا الإحساس المر ، أننا نحجب الوفاء عن مستحقيه إن لم نقابله بالإنكار والجحود ، وأن أفضل الفروض أمام شرنقة الاعتياد ، أننا اعتدنا أن نحجب العرفان ولا نتذكر الجديرين به إلاّ بعد أن يطويهم الموت !!

هل هى عقدة الذنب التى تدفع إلى هذا التدارك وانهمار الثناء وإبراز المزايا والمآثر بعد الرحيل ؟! ولكن بعض من أنصفوا فى حالة الأستاذ محمود عوض ـ كمثال ـ لم يقارفوا ذنبًا فى حقه يدعوهم إلى التكفير ؟!

هل هو الخوف من المنافسة التى تدفع أبناء الكار إلى تجاهل كفاءات الغير ؟! ولكن بعض من تجاهلوا الرجل فى حياته لم يكونوا فى موقع منافسة معه لفارق الكفاءة أو السن أو الظروف .

هل هى آفة النسيان التى تأخذ الأحياء إلى مراكز وبؤر الاهتمام فتنطمر غيرها فى زوايا النسيان ويتراكم عليها التجاهل حتى ينساها الناس فعلًا ؟! ولكن كيف يُنسى صاحب قلم لم تفارقه كفاءته وقدراته لحظة ؟!

يبدو أن حالة الأستاذ محمود عوض حالة مركبة ، تعددت فيها الأسباب والنتيجة واحدة ، هى تجاهل هذا النابه لسنوات قبل أن يصحو الاهتمام بخبر الموت الذى يفاجئ الجميع فينتشل الناسين أو المتناسين من حالة النسيان ، ويوقظ لدى من أخطأوا فى حقه ـ عقدة الذنب !

لا يعرف وحشة ومرارة النكران أو الصدود ، إلا من تميزوا وناضلوا وجاهدوا وأوفوا وأعطوا ، فلم يلاقوا إلاّ صدودًا أو إنكارًا أو ألاعيب صغار أو خيانة نفوس طويت على الغدر وانعدم لديها الوفاء.

من آفاتنا الكبرى أننا لا ننتبه إلى قيمة من بيننا إلاّ بعد فوات الأوان !!!

*****